القول بالصرفة
في إعجاز القرآن الكريم
- عرض ودراسة -

د/ إبراهيم بن منصور التركي

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها

جامعة القصيم

مُلَخَّصُ البَحْثِ

يسعى هذا البحث إلى دراسة قضية الصرفة عند أشهر الكاتبين في إعجاز القرآن، وقد جاء تناول هذا الموضوع في أربعة أقسام، تناول الباحث في أولها تعريف العلماء للصرفة وأنها (صرف الله هِمم العرب عن معارضة القرآن)، كما عرض هذا القسم المصدر الذي جاءت منه هذه الفكرة، وكشف اختلاف الباحثين، حيث ذهب بعضهم إلى أنها مستقاة من غير العرب، في حين ذهب آخرون إلى أن مصدرها عربي خالص، ورجّح البحث الرأي الثاني. وتناول البحث في القسم الثاني الصور التي ظهرت عليها فكرة الصرفة، مع عرض أبرز العلماء الذين قالوا بها من دارسي إعجاز القرآن في كل صورة من الصور. ثم تناول القسم الثالث أبرز العلماء الذين رفضوا الصرفة وناقشوها نقاشاً علمياً. وفي القسم الرابع تناول البحث أهم السمات والنتائج التي خلص إليها الباحث، والتي تمثّلت في أن دوافع بعض من قالوا بالصرفة كانت نابعة من معتقدهم، في حين قال بها آخرون لإقفال الباب على المعاندين والمجادلين بالباطل. وأوضح البحث في الأخير بأن طرح هذه القضية كان له أثره الإيجابي، حيث انطلق العلماء للبحث عن وجه إعجاز القرآن الحقيقي، حتى وصلوا إلى أن القرآن معجز ببلاغته ونظمه.

Al Sarfah Issue in Koran's Miracle

Dr. Ibrahim M. Al Turki

Abstract

This research examines Al Sarfah issue by the writers of the Holy Koran's miracle. This issue was discussed into four sections. The first of them had dealt with Al Sarfah's definition, and where this idea came from, and the scholars who accepted this idea. The third section was devoted to the scholars who had refused and discussed this idea. The fourth section was devoted to the features and the findings of this research, Like:

- Al sarfah means that God prevented people from writing like Koran style.
- Some researchers said that this thought was derived from non-Arab culture, but the correct is that it has an Arabic origin.
- This research showed that this idea had emerged in three forms in Arabic Culture.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

لقد أجمع العلماء على أن القرآن الكريم هو معجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه قد أعجز به العرب جميعاً. ولهذا اندفع جمع من العلماء لبيان الوجه أو الوجوه التي أعجز بها القرآن العباد.

والوجه الذي اتفق عليه جمع كبير من أهل العلم هو أن إعجاز القرآن كائن في نظمه وأسلوبه، وأنه قد تحدى العرب بذلك . إلا أنه وكما انشعبت الفرق في الإسلام وتعددت رجالاتها فقد تعددت آراؤهم واجتهاداتهم في تحديد وجه إعجاز القرآن الكريم.

وكان من ضمن تلك الآراء والاجتهادات ذلك القول الذي يرى بأن القرآن أعجز العرب بـ(الصرْفة). ولهذا سأحاول في هذه الورقات التعرّف على هذا القول، من خلال استعراض آراء العلماء الذين قالوا بذلك، وتبيان مرادهم ومقصودهم. كما سأعرض آراء بعض العلماء الذين رفضوا هذا المقولة وردّوها.

وسأتناول هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

أولاً : تعريف الصرفة ومصدرها.

ثانيا: القائلون بالصرفة.

ثالثاً: أبرز العلماء الذين رفضوا فكرة الصرفة.

رابعاً: فكرة الصرفة، سمات ونتائج.

أولاً : تعريف الصرفة ومصدرها

ذهب بعض العلماء إلى القول بأن إعجاز القرآن يظهر في ((الصرْفة)). والصرفة أو الصرف في اللغة يعني : أن تصرف إنسانا عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك (١) . أما معناها الاصطلاحي الذي يكاد يتفق عليه معظم القائلين بها فهو: صرف الله هِمَمَ العرب عن معارضة القرآن (٢) .

وإذا أردنا أن نقف عند المصدر الذي نبعت منه هذه الفكرة في التراث العربي فإنه يمكن القول بأن في هذه المسألة رأيين مختلفين:

الأول: يذهب إلى أنها فكرة مستقاة من التراث غير العربي. حيث يرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة مأخوذة عن غير العرب. ذلك أن هذه الفكرة ذات أصول في كلام الهند، ومصدرها أقوال خاصة البراهمة في كتابهم الفيدا، ((الذي يشتمل على مجموعة من الأشعار، ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم، ويقول علماؤهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لأن (براهما) صرفهم عن أن يأتوا بمثلها)) (٣) . وهذا المنع يحتمل أن يكون تكليفيا، أي أنهم كُلِّفوا بألا يأتوا بمثله، وبهذا لا يكون للمنع مدخل في إعجاز الفيدا. كما يحتمل أن يكون المنع منعا تمكينيا، بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثله.

ويؤكّد هذا الباحثُ أخذَ الفكرة عن الهنود بقوله: ((عندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور ومن والاه من حكام بني العباس تلقّف الذين يحبّون كل وافد من الأفكار، ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم، فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ويطبّقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق)) (٤) . كما يَنقل الدكتور محمد أبو موسى هذا القول دون أن يتبنّاه، مؤكّداً على أن ثمة علماء ذهبوا إلى أن القول بالصرفة ذو أصول هندية عُرِفَت هناك قبل أن يقول بها العرب (٥) .

كما يُلمِح الرافعي إلى أن الصرفة نتجت عن تأثر المعتزلة بكتب أهل الفلسفة اليونانية، حيث يُقدّم للحديث عن الصرفة بقوله: ((لما نجمت آراء المعتزلة بعد أن أقبل جماعة من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم عن اليونان وغيرهم، نبغت لهم شؤون أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظراً صرفاً، وبين الدين على كونه يقيناً محضاً، وتغلغلوا في ذلك حتى خالف بعضهم بعضاً بمقدار ما يختلفون في الذكاء وبُعْد النظر، فتفرّقوا عشر فرق، واختلفت بهذا آراؤهم في وجه إعجاز القرآن)) (٦). فظاهر كلام الرافعي أن بعض أفكار المعتزلة حول وجوه إعجاز القرآن، بما في ذلك فكرة الصرفة، هي نتاج نظر المعتزلة في كتب الفلسفة اليونانية وغيرها.

الثاني: أنها فكرة عربية خالصة. ويرى أصحاب هذا الرأي أنها ظهرت بفعل أوهامٍ خاطئة حول وجه إعجاز القرآن اعتقدها القائلون بالصرفة. ويشير الإمام عبدالقاهر الجرجاني إلى شيء من ذلك –دون أن يجزم به–، وذلك في تعليل الوهم الذي أدّى إلى القول بالصرفة. حيث يقول بأن ((الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة، أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهّم أن التحدي كان إلى أن يُعبَّر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أطلق لهم وخُيِّروا في المعاني كلها))(٧). وهذا يعني أن القائلين بالصرفة قد تبادر إلى ظنهم أن التحدي كائن في لفظ القرآن ومعناه معاً، وبما أن القرآن قد تضمّن من المعاني ما يخرج عن قدرة البشر، كأخبار الأولين والآخرين، والإخبار بالغيب وما حواه من التشريعات والتعاليم والقيم والمبادئ. فلا يستطيع الإنسان بواقع جبلته وطبيعة تركيبه وعقله المحدود أن يعبّر عنها بمثل بيان القرآن وبلاغته. ومن ثم فهو ممنوع من ذلك بحكم عقله وعلمه المحدود عن الإتيان بمثل معاني القرآن بمثل جمال ألفاظه، أي أنهم مصروفون عن التعبير بمثل أسلوب القرآن لعدم تمكّنهم منه مع معانيه. وهذا القول يشير إلى أن الفكرة كانت عربية النشأة، وقد دفع إليها هذا الوهم.

ويبدو الرأي الثاني في نظري هو الأقرب للصواب، نظراً لعدم ورود أي إشارة من العلماء القدامى الذين تحدّثوا عن هذه القضية تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى كون الفكرة مستقاة من البراهمة أو من غيرهم.

هذا فضلاً عن ((أن عبارة خاصة البراهمة ليس فيها هذا الوجه الذي يعني الصرف وليس فيها ما يقرب منه. وإنما هي صريحة من أنهم لم يقولوا مثل أشعار الفيدا احتراما لها وهذا غير ما نحن فيه لأن الصرفة عند علمائنا تعني أمرا إلهيا)). (٨)

كما ((أن كلام البراهمة كان محل سخرية العقل الإسلامي. وقد كانوا يذكرونه مثلاً للتسليم بعدم الحجة ومثلاً للمذهب الذي لا مستنصر له، لأن الذين قالوا به لا حجة لهم. وكتاب الفيدا مثل كتاب زرادشت وماني فيها عند علمائنا حكم وتهوس، فكيف يستمدون منها وجها لبيان الحجة في القرآن؟... ثم إن النظام أحكم من أن يواجه في حومة جدال مستعر بكلام البراهمة الهش والذي يعرفه أهل زمانه، ويعرفون قدره)) (٩).

وقد تتبّعت آياتِ القرآن الكريم للبحث عن آياتٍ ربما استند إليها –وهماً– من قال بالصرفة. فوجدت آياتٍ تدلّ على صرف كفار قريش عن آيات القرآن، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقّ} [الأعراف، ١٤٦] . أو قوله : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أَنّى يُصْرَفُون} [غافر، ٦٩]، خاصة وأن هذه الآيات جاءت في سور مكية. ويعضدَ هذا آيات أخر جاءت على لسان كفار قريش يَدّعون فيها مقدرتهم على مثل القرآن، كقوله تعالى: {قَالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إلاّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين} [الأنفال، ٢١]. وكقولهم {إِنْ هُوَ إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر * إِنْ هذا إلاّ قَوْلُ البَشَر} [المدثر، ٢٤، ٢٥]. فهذه الآيات صريحة في أنّ مِنْ كفار قريش من ادعى أن قول مثل القرآن في مقدور البشر. وربما فهِم البعض من هذه الآيات قدرة العرب على الإتيان بمثل القرآن، خاصة إذا نُظِر إليها مع تلك

الآيات التي تدلّ على عجزهم وعدم قدرتهم على ذلك، كقوله تعالى: {قُلْ لَئِنْ اجْتَمعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلى أَنْ يأْتُوا بمِثْلِ القُرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلوْ كانَ بَعْضُهمْ لبعضٍ ظَهِيراً}[الإسراء، ٨٨]، وكقوله: {وَإِنْ كَنتُم فِي رَيْبٍ مِمّا نزّلْنا عَلَى عبدِنا فَأْتُوا بِسورةٍ مِن مَثْلِهِ وادْعُوا شُهدَاءَكُم مِنْ دونِ اللهِ إنْ كنتُم صادِقِين. فإنْ لم تَفعَلُوا وَلَنْ تفعَلُوا فاتّقُوا النَارَ الّتِي وَقُودُها النّاسُ والحِجارَةُ أُعِدّت للكّافِرين} [البقرة، ٢٣، ٢٤]، فهذه الآيات تقول: (لا يأتون بمثله) و(لن تفعلوا)، وهي بذلك تدلّ على العجز عن الإتيان بمثله، لكنها لا توضّح السرّ أو السبب الذي منعهم من معارضة القرآن وهم يدّعون أنه في مقدورهم.

وذِكْر السحر مع ادّعاء القدرة على الإتيان بمثله في قوله: {إنْ هُوَ إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر * إِنْ هذا إلاّ قَوْلُ البَشَر} يحتمل أن يكون المقصود بالسحر سحر القرآن البلاغي، كما يحتمل أن يقصد به السحر الحقيقي، بمعنى أن أسلوب القرآن وهو في مقدورهم (فهو من (قول البشر) على حد قولهم)، قد عجزوا عنه لأن سحراً سحروا به منعهم من أن يأتوا بمثله وهذا التأويل لمعنى السحر – إن صح – هو عينه القول بالصرفة. وهو الذي ربما تبادر إلى أذهان بعض القائلين بالصرفة.

وثمة تشابه بين الصرفة والسحر يلمح إليه أحد الباحثين، إذ ((أن التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر، أن الامتناع عن المماثلة في كليهما من خارج الشيء لا من ذاته، فالقول بالصرفة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين، ولكن حيلَ بينهم وبين العمل على المماثلة، وكذلك الأمر في السحر يشدّهم حتى يعجزوا)) (١٠).

لذا أقول: ربما كانت هذه الآيات سبباً من الأسباب التي دفعت أصحاب فكرة الصرفة إلى القول بها، ولكني لا أستطيع الجزم بذلك لعدم وجود الدليل المادي النقلي الذي أستند عليها للقطع بهذا الرأي.

ثانيا: القائلون بالصرفة

برغم اتفاق الباحثين على المفهوم العام لفكرة الصرفة، إلا أن ثمة اختلافاتٍ بين القائلين بها حول تفصيلات معينة تتعلّق بكيفية حدوث الصرفة، ويمكن القول هناً بأن القول بالصرفة ظهر في التراث العربي على ثلاث صور ذكرها العلوي في (الطراز)، وهي:

١- ((أن يُراد بالصرفة أن الله منعهم بالإلجاء على جهة القَسْر عن المعارضة مع كونهم قادرين، وسَلَب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم)) (١١).

٢- ((أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أن أسباب توفّر الدواعي في حقهم حاصلةٌ من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية)) (١٢) وهذه الصورة لا تعني قدرة العرب على معارضة القرآن، فهم غير قادرين على ذلك ألبتة، إلا أن الله تعالى صرفهم عن محاولة شيء من ذلك لئلا يلتبس الأمر على العامة والدهماء ممن لا يفرّق بين بيان القرآن وكلام غيره.

٣- ((أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لابدّ منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إنّ سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين، أحدهما: أن يقال إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم، وثانيهما: أن يقال إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة)) (١٣).

وسأذكر فيما يأتي من قال بهذه الصور من العلماء، وسأبسط رأيه الذي قاله أو نُقِل عنه في عرضه دعوى وجود الصرفة.

الصورة الأولى:

أن العرب صُرِفوا عن الإتيان بمثل القرآن، مع كون ذلك في مقدورهم. وهذا هو رأي أبي إسحاق النظّام (ت ٢٣١هـ). وقد نُسِب إليه ذلك في أكثر من موضع، فالأشعري ينقل في كتابه عن النظام قوله: ((والآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يقدر عليه العباد لو لا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم)) (١٤). وكذلك الشهرستاني الذي ينقل عنه قوله إن القرآن ((معجز من جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا، حتى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة))(١٥). فتلك النقولات صريحة في نسبة الفكرة إليه، وكلها توضح مفهوم الصرفة عنده ((وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها))(١٦) بمعنى أن لو لم يصرفهم الله لأتوا بمثله.

ويُعتبَر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام واحداً من الشخصيات المعتزلية الكبيرة، ويكاد يتّفق المترجمون له على شدته في الذكاء، وحدّته في الفهم والاستنباط وقوته في الحجة، مما يجعل نسبة الصرفة إليه أمرا محيرا. لذلك يرى أحدُ الباحثين ((زيف نسبة رأي الصرفة إليه بالصورة التي يروجها الأشاعرة عنه))(١٧). ومن ثم يعتقد هذا الباحث أن ((الصرفة عند النظام هي انصراف أكثر منها صرفة ورجوع بعد شعور بالعجز أكثر منها تحويل للعجز إلى إعجاز، وإلا كان النظام يعترف للإنسان بالقدرة وبعدم القدرة في آن)) (١٨). ولأنه لا يوجد أدلة قوية ينهض عليها هذا الرأي سوى ظنّ ذلك الباحث فإنه يبقى محلّ نظر.

في حين يرى آخرون بأن النظام ((رمى بهذا القول في حومة الجدل ولجاجة الخصومة، ولم يقله عن دراسة ومراجعة وتمام اقتناع))(١٩). ويؤكد هذا أحد الباحثين، حيث

يرى بأن ((نظرية الصرفة إنما تكونت في غمار المعركة التي واجه فيها المعتزلة أصنافاً من الخصوم، وقد كان النظام من فرسان هذه المعركة الكلامية، وكان يميل في تفكيره إلى المنهج القياسي التجريبي الواقعي، وجاء في وقتٍ لم تُدْرَس فيه بعد البلاغة القرآنية، ولم تُعرَف أسرار نظمه وتأليفه بالقدر الذي يجعل المفكر الواقعي قادراً على الدفاع عن إعجاز القرآن في النظم والتأليف بحجج واقعية، توضح بجلاء الفرق بين النظم القرآني وبين كلام العرب الفصحاء)). (٢٠)

وهذا يعني -كما يقول الدكتور محمد أبو موسى- بأن النظام قد ألقى بهذا القول للدفاع عن إعجاز القرآن الكريم، ذلك ((أنه قد رمى بهذه المقالة في وجوه أهل الزيغ الذي كانوا يثيرون ما ينقض حجة النبوة، ولم يشأ أن يجادلهم في أمر النظم، لأنه يعلم أن النزاع فيه لا يُدفَع إلا عند من كان ذا طبع إذا نُبِّه انتبه)) (٢١) فهو إذن قد قال به عن غير قناعة وإيمان، لإقفال الباب أمام المعاندين والجاحدين والمجادلين في نظم القرآن وبلاغته.

وفي هذا الكلام نظر، لأن النظّام لا يرى في نَظْم القرآن ما يميّزه عن كلام العرب حتى يُجادِلهم فيه، فالنظم - حسب قول النظام السابق- (مما يقدر عليه العباد)، وليس وجهاً للإعجاز عند النظام، ويؤكّد الجاحظ هذا في مقدمة كتابه المسمى "نظم القرآن" بأنه لم يَدَعْ ((فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي... ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة)) (٢٢)، وما يقوله أيضاً في "حجج النبوة"، حيث يقول: ((إن النظّام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان)). (٢٣)

إن هذه النصوص تدلّ على أن النظّام يرى أن تأليف القرآن ولغته وأسلوبه ليست محلّ الإعجاز، فوجه إعجاز القرآن عنده هو إخباره بالغيب -كما سبق-. إنه ينكر أن يكون الإعجاز في الشكل، ويُرجِعه إلى المضمون.

وبهذا فالقول بالصرفة يبدو منسجماً مع فهم النظام لإعجاز القرآن، ولا داعي للقول بأنه قال به إقفالاً للخصومة والجدل، فالنظم ليس وجهاً من وجوه الإعجاز حتى يقول بالصرفة للردّ بها على المعاندين. وربما كان ضعف أدب العرب بعد الإسلام هو دافعَه إلى القول بالصرفة، حيث لا يرتقي أدب العرب بعد الإسلام إلى بلاغة أدبهم وجماله قبله.

ولكن هذا لا يمنع من أن تكون فكرة الصرفة التي قال بها النظام دون أن يتعمّق فيها، قد توسّع فيها من بعده، وجعلوها وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، وأن يكون هؤلاء هم الذين استعملوها لإقفال باب الخصومة والجدل، والردّ على المعاندين الجاحدين.

الصورة الثانية :

يرى أصحاب الصورة الثانية من القائلين بالصرفة أن بيان القرآن وبلاغته ليست في مقدور العرب ولا إمكانهم، ولكنّ الله تعالى صَرَف العربَ عن محاولة ادّعاء الإتيان بمثل بلاغة القرآن وبيانه، ذلك أن الناس ليسوا على درجة واحدة من حيث إدراك التمييز بين روعة البيان القرآني ورداءة غيره من الكلام، لذلك صرف الله العرب عن محاولات المعارضة لئلا يلتبس الأمر على العامة والدهماء فيظنّوا أن هناك من أتى بمثل بيان القرآن وبلاغته.

ويقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) بمثل هذا الرأي، حيث إن النص السابق الذي نقلناه قبل سطور عن ما يسمى كتاب "نظم القرآن" للجاحظ يكشف عن عدم اتباع الجاحظ رأي شيخه النظام ورفضه له. فالجاحظ يرى أن إعجاز القرآن في بلاغته وأسلوبه. حيث يقول ((ولو أن رجلا قرأ على رجلٍ من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى

بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها)) (٢٤) . وهذا القول مع القول السابق قاطعان في رد الجاحظ لكلام النظام، واعتباره إعجاز القرآن بلاغيا.

إلا أنه برغم ذاك، فان بعض الباحثين، كالرافعي مثلاً، يلتبس عليه موقف الجاحظ، ولذلك يعدّه ((كثير الاضطراب، فإن هؤلاء المتكلّمين كأنما كانوا من عصرهم في منخل، ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة)) (٢٥)

وسبب ذلك أن الجاحظ يسرد في أحد المواضع طائفة من أنواع العجز رَدّها إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها، حتى عَدّ منها ((ما وقع من أوهام العرب وصَرْف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم بنظمه، ولذلك لم تجد أحدا طمع فيه أو تكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء)). (٢٦)

على أن نسبة الصرفة للجاحظ بنفس مفهومها عند النظام أمر لا يثبت عند التدقيق وإعمال النظر، خاصة وأنه بالإمكان الجمع عنده بين قوله بالصرفة وإعجاز القرآن ببلاغته. فالصحيح ما قلناه أعلاه من أن الجاحظ يرى أن القرآن معجز بنفسه، ولكن الله صرف العرب عن محاولة المعارضة لئلا يلتبس الأمر على العامة. فالله قد صرف العرب عن معارضة القرآن رغم تعذر أسلوبه عليهم، ليقفل باب اللجاجة والخصومة والشغب الباطل.

وهذا هو الفهم الدقيق الذي يفهمه أكثر من باحث حول موقف الجاحظ، فالدكتور محمد أبو موسى يقول عن كلام الجاحظ في الصرفة: ((الصرف هنا مباين للصرفة التي ذكرها النظام وأنكرها الجاحظ.. فلولا الصرف عند النظام لجاءوا بمثله. أما صرفة الجاحظ هذه فلولاها لطمعوا فيه.. الصرف هنا لا يجوز أن نحمله على معنى أنه

لولاه لجاءوا بمثله وأنه وجه إعجاز القرآن.. إنما هو قاطع في أن الصرف هنا أَغْلَقَ باب اللجاجة بالباطل المتعلق بأدنى شبهة.. يتعلق بها من لا حاجز له من تمكن الدين)).(٢٧)

ويؤكّده باحث ثانٍ بقوله إنه ((قد تبيّن من كلام الجاحظ أنه لم يستعمل الصرفة بمفهومها النظامي الذي سبق أن أنكره عليه، وإنما استعملها بمفهوم آخر لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم، فانصراف العرب عن معارضة القرآن إنما وقعت بعد أن تحدّاهم الرسول بنظمه، وهي لذلك ليست تعني أنه تعالى أحدث فيهم منعاً وعجزاً، وإنما تعني أن له تعالى في ذلك تدبيراً حَفِظَ به القرآن من شغب المعاندين، فصرفهم عن كل محاولة، ولو كانت ضعيفة لما قد يدخل بذلك من الشبهة على ضعاف العقول، ولما قد ينشأ عنه من الفتنة)). (٢٨)

وبهذا الفهم يتّضح –كما يقول باحث ثالث– أن الصرفة عند الجاحظ قد عَرَضَتْ للعرب فلم يقلّدوا القرآن، وبهذا فالصرفة تغدو عنده وجهاً من وجوه الإعجاز، ولكن بعد أن حاول العربُ المعارضة وفشلوا، واعترفوا بالعجز، وشهدوا أن القرآن معجز لنظمه(٢٩) إن كلام الجاحظ واضح في أن تجربة المعارضة لم تقم، وأن الله قد صرف العرب عن محاولتها، حتى لا يشتبه الأمر على العامة وأشباههم. ومن هنا نلحظ اختلاف مفهوم الصرفة بين الجاحظ وشيخه النظام . فهي عند الجاحظ أقرب إلى منطق العقل وأسلم منهجا في التفكير.

وتنتقل فكرة الصرفة بمفهومها الذي قال به الجاحظ إلى آخرين بعده، فهذا هو الرمّاني (ت ٢٨٦هـ) يأتي بعد الجاحظ ويذكر وجوها سبعة لإعجاز القرآن، ويعد الصرفة والبلاغة منها. والبلاغة القرآنية في رأيه ليست في مقدور البشر، بدليل تقسيمه البلاغة إلى طبقات ثلاث: ((منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط.. فما كان في أعلاها فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو

ممكن، كبلاغة البلغاء من الناس)) (٣٠) وهذا النص صريح في أن بلاغة القرآن ليست في مقدور البشر.

ومن ثم اتخذت الصرفة عنده المعنى نفسه الذي أراده لها الجاحظ، وهو أن الصرفة تعني -حسب قوله- : ((صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة. وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول)). (٣١)

ثم هو يذكر من ضمن الوجوه السبعة ما يسميه: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة. ويفصّل القول فيه بأن توفّر الدواعي ((يوجب الفعل مع الإمكان لا محالة في واحد كان أو جماعة. والدليل على ذلك أن إنسانا لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه وكل داع يدعو إلى مثله، وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز ألا تقع شربة منه حتى يموت عطشا لتوفر الدواعي على ما بينا. فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه. فكذلك توفر الدواعي إلى المعارضة على القرآن لما لم تقع المعارضة دل على العجز عنها)) (٣٢)

وهو بهذا الوجه يؤكد كلام الجاحظ من أن عدم قول العرب كلاما في مثل أسلوب القرآن ليس بسبب الصرفة فحسب، بل إن ذلك راجع أيضا إلى عجزهم الداخلي عنه بسبب روعة البيان القرآني. حيث إن للمنع - عنده - صورتين، أولاها: المنع بسبب العجز الذاتي الداخلي الكائن في تركيب كل إنسان، فلا يستطيع بسببه أن يأتي بمثل القرآن. والأخرى: هي صورة المنع الخارجي التي صرفهم الله فيها عن معارضة القرآن وإن لم يكن في مقدورهم.

الصورة الثالثة :

يرى القائلون بالصرفة حسب هذه الصورة أن الله تعالى صَرَفَ العربَ عن تعلّم العلوم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله. وقد قال بهذا الرأي الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) الذي يرى بأن الله صرف العرب ((بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها فن المعارضة، فهذا الصرف خارق للعادة، فصار كسائر المعجزات)). (٣٣)

وقال به أيضاً ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) الذي يذهب إلى أن ((المعجز الدالّ على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن، والخلاف الظاهر فيما به كان معجزاً على قولين، أحدهما: أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية... والقول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن صَرْف العرب عن المعارضة، مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف)) (٣٤) . ولا يوضّح ابن سنان هنا صورة الصرف لكنه يعود إلى ذات الموضوع في موضعٍ آخر من الكتاب، حين ينكر تفوّق فصاحة القرآن على فصاحة العرب، حيث يقول في الردّ على تقسيم الرمّاني الكلام إلى ثلاث طبقات: ((وأما قوله إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا، وغيره في الطبقة الوسطى، وهو يعني بذلك جميع كلام العرب، فليس الأمر على ذلك، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية، ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه.... وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صَرْف العرب عن معارضته بأن سُلِبوا العلوم التي كانوا بها يتمكّنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك)) (٣٥)

ولا يبدو واضحاً في كلام هذين العالمين (الشريف المرتضى وابن سنان) مقصودهما بالعلم الذي سلبه الله من العرب بحيث لا يستطيعون به معارضة القرآن. ولكن ثمة إشارة عند القاضي عبدالجبار توضّح المقصود بذلك العلم. حيث يقول

القاضي عبدالجبار في ردّه على من يقول بالصرفة: ((فإن قال: امتنع عليهم ذلك بأن أعدمهم الله العلوم التي يُمكِن الكلام الفصيح، فصار ذلك ممتنعاً عليهم لفقد العلم)).(٣٦)

يتّضح من هذا الكلام أن المقصود بالعلم الذي سلبه الله العرب ليأتوا بمثل القرآن هو العلم الذي يعرفون به صنعة البيان، وفصاحة الكلام وبلاغته، بحيث يستطيعون النسج على نفس منوال النظم القرآني.

وبهذا يظهر أن ابن سنان يرى بأن إعجاز القرآن يكمن في سلب العرب العلم الذي يستطيعون به النظم على مثل فصاحة القرآن، فهو يذهب إلى أن العرب كانت لديهم القدرة على مثل فصاحة القرآن وبلاغته، بدليل قوله: ((ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية، ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه))، وهذا يعني -حسب ما يفهم من كلام ابن سنان- أن العرب وُجِد في كلامهم قبل نزول القرآن ما يضاهي بلاغة القرآن، ولكن لما نزل القرآن سلبهم هذه القدرة وهذا العلم بصنعة البيان. وهذه المقولة ظاهرة التهافت، وقد ردّ عليها وفنّدها القاضي عبدالجبار في ثنايا مناقشته فكرة الصرفة.(٣٧)

وهي لا تختلف كثيراً عن الصورة التي قال بها النظّام، إلا أن الفرق بينهما يكمن في أن النظّام لم يوضّح الكيفية التي تحقّق بها منع العرب وصرفهم، ولكن الشريف المرتضى وابن سنان -كما يُفهم من كلام القاضي عبدالجبار- صرّحا بكيفية الصرف، بأنه كان عبر سلب العلوم التي يحتاجونها في معارضة القرآن.

ثالثاً: أبرز العلماء الذين رفضوا فكرة الصرفة

لا شكّ أن جمهرة كبيرة من العلماء رفضوا القول بالصرفة، وقد لا يتأتّى حصرهم وعدّهم هنا، ولكني سأقصر حديثي هنا على أولئك العلماء الذين كَتَبُوا في إعجاز القرآن وذهبوا إلى رفض فكرة الصرفة وردّها.

ومن أوائل من رفض القولَ بالصرفة الخطابيُّ (ت ٣٨٨هـ) في كتابه (بيان إعجاز القرآن)، وهو قبل أن يحكم للصرفة أو عليها حاول أن يعرض فهم القائلين بها لها، حيث يقول : ((ولو كان الله بعث نبياً في زمان النبوات وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال:آيتي أن أحرك يدي أو أمد رجلي ولا يمكن أحداً أن يفعل مثل فعلي، والقوم أصحاء الأبدان، لا آفة بشيء من جوارحهم فحرك يده أو مد رجله، فراموا أن يفعلوا مثله فعله، فلم يقدروا عليه، كان ذلك آية دالة على صدقه، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي، ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارقاً عن مجاري العادات ناقضاً لها))(٣٨)

ثم بعد أن يعرض الخطابي مفهوم الصرفة، يبين رأيه فيها بعد أن يقرر أن القول بها وجه قريب، إلا أنه مع هذا يرفض القول بها، ((لأن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله سبحانه {قُلْ لَئِنْ اجْتَمعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلى أَنْ يأْتُوا بمثْلِ القُرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهمْ لبعضٍ ظَهِيراً}[الإسراء، ٨٨]. فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها والله أعلم)). (٣٩)

وهو بهذا قد رد الصرفة رداً لا يقبل الجدل، لأنه لو كان الله سلبهم القوى لما ذكر تساندهم وتعاونهم وتظاهرهم، ((لأن المفرغين من الطاقة المؤثرة لا يكون لاجتماعهم أثر،

وألف أعمى لا يهدون أعمى وألف ميت لا يعينون ميتاً)). (٤٠) وهذا الوجه الذي يرد به الخطابي الصرفة يتناقله بعده أهل العلم ويشيع بينهم في الكتب، دلالة على وجاهته وقوته - كما يذكر ذلك د.أبوموسى. (٤١)

ومن العلماء الذين أنكروا الصرفة أيضاً الإمام الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) الذي يرى بأن القرآن معجز ببلاغته، وأن البشر لا يستطيعون أن يقولوا مثله مهما حاولوا، وهو بهذا الرأي لا يرى في الصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز.

ومن ثم فهو يردها بعد أن يعرض رأي أصحابها القائلين بأن ((البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله -يعني القرآن - مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات، فإن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة..كان على نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف.. ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ..لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما..حتى يتكامل قدر الآية والسورة)). (٤٢)

وهو يحاول أن يبين وجه تهافت هذا القول من عدة وجوه، أولها: أنه ((لو صح ذلك، صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن)). (٤٣)

أما الثاني: فلو صحت الصرفة لكانت وحدها كافية دليلاً على الإعجاز، ولم يحتج إلى نزول القرآن بليغاً فصيحاً و((لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه أبلغ في الأعجوبة، إذ صرفوا عن الإتيان بمثله ومنعوا معارضته وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع)). (٤٤)

وفي الوجه الثالث يبين أن ((لـو كانوا صرفوا على ما ادعاه، لم يكن من قبلهم أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل بـه في الفصاحة والبلاغـة وحسن النظم وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجة، فلما لم يوجد مـن قبلـه مثلـه، علـم أن مـا ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان)). (٤٥)

وبهـذه الأدلـة الدامغـة لم يـترك الباقـلاني بابـاً إلا وأقفـله في وجـوه القـائلين بالصرفة. وحتى يستكمل القضية من جميع جوانبها يعرض الزعم القائل بأن ((كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد عليه في الفصاحة)) (٤٦) . ثـم يـرد عليـه بـأن ((ليس الكلام على ما يقدّره مقدّرٌ في نفسه، ويحسبه ظان من أمره، والمرجوع في هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد)) (٤٧) . ويبين أن القائلين بهذا الزعم شبيهون بمن حكى الله عنهم قوله { إنْ هُوَ إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر * إِنْ هذا إلاّ قَوْلُ البَشَر }[المدثر، ٢٥،٢٤]. ((فهـم يعـبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله بأن ذلك من قول البشر)) (٤٨)

إن الباقلاني – كما هـو ظـاهر – وقـف مـن الـصرفة موقـف الـرافض، وحمـل عـلى عاتقه أمر دفعها وإنكارها، وقد أجاد في ذلك وأفاد وكأنه يمهد بذلك للقول الفصل الذي سيدلي به شيخ البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني.

ومن هؤلاء الذين أنكروا الصرفة أيضاً القاضي عبدالجبار (ت٤١٥هـ) الذي يرى بأن القرآن معجز بفصاحته، ومن ثم فهو يرفض فكرة الصرفة جملة وتفصيلا. لأن الله تعالى بيّن ((عظم شأن القرآن بقوله {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بعْضُهُم لِبعْضٍ ظَهِيرا}[الإسراء، ٨٨]، فنبه بذلك على أنّ له من الرتبة والفصاحة ما لا يدركه العباد انفردوا أو اجتمعوا. ولو كانوا يقدرون عليه، وإنما صُرِفوا عنه، لم يكن لهذا القول معنى)) (٤٩) وهـو هنا ينفي الـصرفة بالمعنى الذي يريده النظام – أي أن الله صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن وهو في مقدورهم – كما سبق بيان ذلك.

كما أنه يرفض الصرفة بالمفهوم الذي أراده الجاحظ، وهو أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن ((لأنه لا يجوز أن يكونوا ممنوعين من الكلام، لأن المنع والعجز لا يختص كلاما دون كلام، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم لما أمكنهم الكلام المعتاد، والمعلوم من حالهم خلاف ذلك، وأن هذا لو صحّ لم يوجب كون القرآن معجزاً، وكان يجب أن يكون المعجز من فعل مثله)) (٥٠) وهذا كما يبدو سوء فهم لمقصد الجاحظ، فالجاحظ لا يعني أن الله أفقدهم القدرة على النطق والكلام حينما يريدون معارضة القرآن. وإنما يريد أن الله صرف قلوبهم لا ألسنتهم عن المعارضة، فلم يتحمسوا لها أو يتكلّفوها.

وهو يحاول التماس علة عدم معارضتهم للقرآن، بأن ((دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم بأنها غير ممكنة...ولولا علمهم بذلك لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعاً لمعرفتهم بأنها متعذرة..إنهم علموا بالعادات تعذر مثله فصار علمهم صرفاً لهم عن المعارضة)) (٥١) وهذا الكلام واضح في أن العرب عرفت تعذر مثل ذلك الأسلوب عليها فانصرفت عن معارضته، ((أي أن العقل فكّر وجرّب ثم اقتنع بأن قدراته تمنعه من الإتيان بمثل هذا القرآن)) (٥٢) وهذا ردّ صريح لرأي الجاحظ.

كما أنه يناقش بعض معاصريه الذين يقولون بأن الله صرف العرب عن القرآن ((بأن سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في المعارضة)) (٥٣) فهو يتساءل أوّلاً عن المقصود بذلك العلم، فهل كان هذا ((العلم حاصلاً لهم من قبل معتاداً، فمنعوا منه بعد ظهور القرآن؟ أو..أن المنع من ذلك مستمر غير متجدد، فهم لم يختصوا ولا مَنْ تقدمهم بهذا العلم؟)) (٥٤)

فإن قيل بأن العلم كان قائماً قبل القرآن ومُنِعوا بعد ظهوره، فالقرآن حينئذ في طبقة كلامهم الذي قالوه من قبل المنع. ويكون المعجز هو المنع. وهذا منافٍ لتحدي

الرسول لهم بالقرآن. وإن قيل إن العلم لم يكن حاصلاً لهم من قبل، وأنهم يمكنهم أن يعارضوا القرآن لو علمهم الله إياه، لكان هذا القول إقراراً بمزايا القرآن البلاغية، لأنه يعني أن ((للقرآن المزية في الفصاحة، من حيث يحتاج إلى قدر من العلم لم تجرِ العادة بمثله)). (٥٥)

ومن هنا نلاحظ أن القاضي قد رفض الصرفة رفضاً قاطعاً بكلّ صورها الثلاثة، ويؤكد ذلك أحد الباحثين مؤكداً على أن القاضي عبدالجبار ((ردّ بشدةٍ رأي من قال بالصرفة، وفنّد رأيهم، وظهر عليهم)) (٥٦) .

إلا أن القاضي عبدالجبار مع شدة رفضه فكرة الصرفة لم يسلم ممن نسب إليه القول بها. حيث ينسِبُ إليه أحد الباحثين القول بالصرفة بالمعنى الذي قال به الجاحظ، إذ يقول: ((أما الذين ألّفوا في قضية إعجاز القرآن بعد الجاحظ، وعرضوا لنظرية الصرفة، فقد تأرجحوا فيها بين المفهومين السابقين(٥٧)، ففي الوقت الذي وجدنا القاضي عبدالجبار يأخذها بالمفهوم الجاحظي، وجدنا ابن سنان الخفاجي يأخذها بالمفهوم النظامي)). (٥٨)

وهذا فهمٌ جانبه الصواب لسببين، أولهما: أن الصرفة لم تظهر بهذين المفهومين فقط (النظامي، والجاحظي) بل ثمة صورة ثالثة ذكرناها فيما سبق لم يُشر إليها الباحث، وثانيهما: أن دعواه بأن القاضي عبدالجبار قد قال بالصرفة بمفهومها عند الجاحظ غير صحيح، فالقاضي عبدالجبار قد أنكر الصرفة ورفضها حسبما دلّت أقواله السابقة.

المأخذ الوحيد الذي يُؤْخذ على القاضي عبدالجبار هنا هو مسايرته لمن قال بأن الله صرف العرب عن إدراك العلم الذي يستطيعون بواسطته القول على مثل نظم القرآن وبلاغته. حيث إن القاضي يقول بهذا من باب الردّ ومناقشة قول الشريف المرتضى ومن وافقه، ويظهر المأخذ في أن مقولة القاضي (تُعقِلنُ) المعجزة، وتجعلها شيئاً قابلاً للمعرفة

والتعلّم، وهي ليست كذلك. إذ يمكن -حسب هذا الفهم- أن يقال أيضاً إن الله صرف قوم إبراهيم عن إدراك العلم الذي يستطيعون به سلب النار قدرتها على الإحراق، وأنه تعالى سلب قوم عيسى العلم الذي يستطيعون به إحياء الموتى، وهذا فهم لا يستقيم لأنه يسلب المعجزة قدرتها الخارقة. فمهما بلغ الإنسان من العلم لن يستطيع تغيير شيء من السنن التي أودعها الله هذا الكون، وهو ما يقع في المعجزة التي تكون خارقة لسنَن المعتاد الإنساني.

ثم يأتي الإمام عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ويرفض الصرفة أيضاً، محاوِلاً كشف السبب الذي دعا أصحابها إلى القول بها، إذ يرى أن أول ما كان من أمر الصرفة اعتقاد أصحابها أن التحدي كان في لفظ القرآن ومعناه. وهو يفند هذا الاعتقاد بالآية التي تقول {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ. قُلْ فَأْتُوا بَعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ }[هود، ١٣]، ثم يقرر أن الافتراء راجع إلى المعنى، فإذا كان كذلك ((كان المراد: إن كنتم تزعمون أني قد وضعت القرآن وافتريته وجئت به من عند نفسي، ثم زعمت أنه وحي من الله، فضعوا أنتم أيضاً عشر سور وافتروا معانيها)) (٥٩). وبهذا يقطع عبدالقاهر دابر ذلك الادعاء.

إنه هنا يستشهد بكلمة: (مفتريات) على أن تحدّي القرآن وإعجازه إنما هو في نظمه وأسلوبه لا معانيه، لأن الافتراء إنما يكون للمعاني، فدلّ ذلك على أن المقصود هو أن يأتوا بشيء من مثل القرآن في أسلوبه وبلاغة عباراته وألفاظه، بأي معنى أرادوا ولو كان افتراء من عندهم.

ثم يأخذ في الإجهاز على فكرة الصرفة بأدلة قوية تقضي عليها قضاء مبرماً، وذلك عبر فصلٍ عقده عما يلزم القائلين بالصرفة، ويذكر من تلك الأمور اللازمة أن القول بالصرفة ((يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم))، (٦٠) وذلك

يشكك في أشعار شعراء النبي صلى الله عليه وسلم وفي عون روح القدس لحسان ((لأنه لا يكون معاناً مؤيداً من عند الله وهو يعدم ما كان يجده قبلُ كثيراً)). (٦١)

كما ((أنهم يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضوا في العرب من دخول النقص على فصاحتهم، وتراجع الحال في البيان وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطراً من بيانه))، (٦٢) أي أنه يلزم من مقالتهم إما اعتبار بلاغة النبي عليه السلام وبيانه داخلاً في النقص لأنه مصروف مثلهم، أو أن تكون غير داخلة فيكون كلامه في مرتبة كلام القرآن، وذلك ما لا يقول به أحد.

وهذان الدليلان كافيان لرد الصرفة وإبطال القول بها، إلا أن عبدالقاهر لايكتفي بهما، بل يزيد في الأدلة زيادة في الإقناع. فهو يستدل – أيضاً – ((بأنه كان ينبغي لهم لو أن العرب كانت مُنِعَت منزلة من الفصاحة أن يعرفوا ذلك من أنفسهم)) (٦٣)، ولكان نقل عنهم ذلك أو ذكروه للنبي صلى الله عليه وسلم أو شكاه بعضهم إلى بعض. وإذ لم يرد ذاك عنهم ويذكر تبين فساد هذا القول.

ويعيد عبد القاهر ما ذكره الخطابي قبله من أن القول بالصرفة يتعارض مع آية التحدي { قُلْ لَئِنْ اجْتَمعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلى أَنْ يأتُوا بمثْلِ القُرآنِ لا يأتُونَ بمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهمْ لبعضٍ ظَهِيراً}[الإسراء، ٨٨]، لأن التحدي لا يكون في شيء يمنعه الإنسان بعد القدرة عليه، ثم إنه لا معنى لما يفهم من الآية من أمر التضافر والاحتشاد لو كان الأمر أمر صرفة.

ولو كان الأمر كذلك لما كان نظم القرآن معجزة النبوة وعلامتها، ذلك أن ((عَلَمَ النبوة عندئذ والبرهان، إنما كان يكون في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن لا في نفس النظم)) (٦٤) . لأن التعجب والإكبار إنما يقع للمنع الذي فيه الآية والبرهان لا إلى الممنوع منه.

ويؤكّد عبدالقاهر هذه الفكرة بموقف العرب من بيان القرآن وانبهارهم ببلاغته، ففي هذا ردّ صريحٌ على ((أصحابَ الصَّرفة أيضاً، وذاكَ أنه لو لم يكنْ عَجْزُهم عن معارضةِ القرآن وعن أن يأتوا بمثلِه لأنه معجزٌ في نفسه، لكن لأن أدخلَ عليهم العجْز عنه وصُرِفَتْ هِمَمهم وخواطِرُهم عن تأليفِ كلامٍ مثلِه، وكان حالُهم على الجملةِ حالَ من أُعْدِمَ العلمَ بشيء قد كان يعلَمُه، وحِيلَ بينه وبين أمرٍ قد كانَ يتَّسِعُ له، لكانَ ينبغي أن لا يتعاظَمَهم، ولا يكونَ منهم ما يدلُّ على إكبارِهم أمْرَه وتعجُّبِهم منه، وعلى أنَه قد بَهَرهم وعَظُم كلَّ العِظَم عندَهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجّب للذي دخلَ من العَجْزِ عليهم، ورأَوْه من تَغَيُّرِ حالهم، ومن أنْ حِيل بينَهم وبينَ شيءٍ قد كانَ عليهم سهلاً، وأنْ سُدَّ دونَه بابٌ كانَ لهم مفتوحاً. أرأيتَ لو أن نبياً قال لقومِهِ إن آيتي أن أضعَ يدي على رأسي هذه الساعةَ وتُمْنَعونَ كلُّكم من أن تستطيعوا وضعَ أيديكم على رؤوسِكم وكان الأمْرُ كما قال، ممّ يكون تعجّبُ القوم، أمن وضعِه يدَه على رأسِهِ؟ أم من عَجْزِهم أن يضعوا أيديَهم على رؤوسهم؟))(٦٥) . إنه هنا يؤكّد على أنْ لو كان إعجاز القرآن بالصرفة لما كان ثمة معنى لتعجّب العرب من بيان القرآن وانبهارهم ببلاغته وروعة أسلوبه.

هذا فضلاً عن أن الأصل في المعجزة أن تكون ظاهرة جلية يعرفها كل أحد، لا أن تحتاج إلى كدّ وجهد وإعمال فكر حتى يعلمها قوم النبي، ((ذاك أن من حق المنع إذا جُعِل آية وبرهاناً، ولاسيما للنبوة، أن يكون في أظهر الأمور وأكثرها وجوداً وأسهلها على الناس وأخلقها لأن تبين لكل راء وسامع أن قد كان مَنْع، لا أن يكون من خفي لا يُعرَف إلا بالنظر، وإلا بعد الفكر، ومن شيء لم يوجد قط ولم يعهد))(٦٦) .

ومن هنا نلحظ أن عبد القاهر يحشد كل الأدلة التي سبقته ليدحض فكرة الصرفة، بحيث لايترك شبهة يمكن أن ترد إلا وينقضها نقضاً لا يبقي منها شيئاً. وبما قاله عبدالقاهر يكون هذا الفصل قد أتى على فكرة الصرفة ونقضها النقض الذي يقطع دابرها ويستأصل شبهة القول بها.

رابعاً: فكرة الصرفة، سمات ونتائج

بعد ذلك العرض لآراء أبرز القائلين بالصرفة وأبرز منكريها، لاشك أن هناك بعض الملحوظات والسمات التي يمكن أن تستخلص من تلك الآراء. ويمكن أن نوجز أبرز الملحوظات فيما يلي:

- يُلحَظ أن الصرفة اتخذت ثلاث صور، الأولى: أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن وهو في مقدورهم، وهذا هو رأي النظام. والثانية: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن - وإن لم يكن في مقدورهم - حتى لا يلتبس الأمر على العامة، وهذا هو رأي الجاحظ والرماني. والثالثة: أن الله صرف العرب عن معرفة العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة لذلك لم يستطيعوا معارضته، وهذا هو قول الشريف المرتضى وابن سنان الخفاجي.

- يُلحظ أن بعض الذين قالوا بالصرفة على وجه من الوجوه، قد ورد عنهم القول بأن إعجاز القرآن بلاغي كذلك -ومن هؤلاء الجاحظ والرماني مثلاً-، بل وحتى الخطابي الذي نفى الصرفة نفياً قاطعاً أشار إلى أن القول بها وجه قريب. مما يطرح علامة استفهام حول هذا التردد بين القولين، وعن السبب الذي جمع فيه هؤلاء العلماء بينهما.

ويحاول أحد الباحثين أن يلتمس شيئاً من العلة لذلك فيرى أن القول بالصرفة كان له في ذلك الوقت ((شيعة من أهل العلم الذين رأوه طريقاً مختصراً وواضحاً في إثبات المعجزة وبرهان النبوة، وأن الاحتجاج به نافع مع أهل الجدل من المخالفين والمضلين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من أهل النظر، وأن الدخول معهم في مسألة النظم يفتح باب اللجاجة والشغب والمدافعة بالباطل، لأنه باب يضيق مجال الحجة فيه))(٦٧) وهذه العلة لا تخلو من وجاهة كما هو ظاهر.

- البحث في أسباب نشأة الصرفة لا يكشف عن رأي قاطع يوضّح المصدر الذي نبعت منه هذه الفكرة، لذا يظلّ القول بمصدرها أمراً اجتهادياً لا يمكن الجزم به.

- معظم الذين قالوا بالصرفة ينتسبون إلى طائفة المعتزلة، وهذا ربما كان بسبب النهج العقلاني الذي يستعمله المعتزلة للنظر والحكم على الأمور، وحتى القاضي عبدالجبار الذي جرّد حسامه للقضاء على فكرة الصرفة - سواء صرفة النظام أو الجاحظ أو الشريف المرتضى - أطلّ الطرح العقلاني عنده على استحياء في ثنايا رفضه فكرة الصرفة كما مر ذلك. مما يوحي بأن فكرة الصرفة فكرة معتزلية خالصة،كما يصرح بذلك الشيخ محمود شاكر الذي يقول بأن ((القول بالصرفة من أقوال المعتزلة)) (٦٨)

ويؤكّده باحث آخر عندما يرى بأن ((مبدأ القول بالصرفة نبع من المبدأ الثاني للمعتزلة وهو مبدأ العدل الالهي وفحواه:" أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها"(٦٩)، وبناء على ذلك فما لم يقدر عليه العبد فقد انصرف عنه لسبب، قد يُبرَّر التبرير المعقول وقد يشطح به الخيال)) (٧٠) وعلى هذا يكون عجز العرب عن معارضة القرآن لابدّ أن يكون له سبب تقبله عقولهم، وبسببه انصرفوا عن الإتيان بمثل القرآن، وطبيعي أن تكون محاولات البحث عن ذلك السبب إما قريبة من الصواب أو بعيدة عنه كما هو شأن القول بالصرفة.

وقد أكّد هذا قبلاً الدكتور محمد زغلول سلاّم، حيث يرى بأن رأي النظام ((صادرٌ عن عقيدتين في نفس الرجل، الأولى: عقيدته في التوحيد والعدل على مذهب المعتزلة، ونفي صفات الله عن ذاته، ومن ثم فلا كلام لله في الشكل اللفظي المعهود من الخلق، وإنما كلام الله وحي وإلقاء في الروع. والثانية: مذهبه القياسي التجريبي الطبيعي في التفكير، وتزمّته في تطبيقه على القرآن وبيانه)). (٧١)

– ما سبق يشير إلى أثر الاعتقاد في الوجهة التي اختارها بلاغيو المعتزلة وجهاً لإعجاز القرآن، ولذلك يبدو مستغرباً أن يقول أحد الباحثين في ثنايا حديثه عن الصرفة ما نصه:

((تحليل أصول البيان وبناء الأساليب يجري عند المعتزلة كما يجري عند الأشاعرة وأهل السنة... إنه من الوهم أن نتحذلق ونقول: أن بلاغة العلوي في الطراز بلاغة شيعية، وبلاغة الزمخشري في الكشاف بلاغة اعتزالية، وبلاغة عبدالقاهر بلاغة أشعرية)). (٧٢)

إن هذا الكلام وإن سرى على أغلب الأصول البيانية والقواعد البلاغية، إلا أن تعميمه بهذه الصورة أمر يحتاج إلى وقفة. وقد أشار أحد الباحثين إلى أن أكثر الفرق تأليفاً في البحث البلاغي هم المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، وأن هناك وجوهاً متعدّدة ساروا عليها في مجال خدمة المعتقد من خلال البحث البلاغي(٧٣)، ولذلك يَثبُت لدى هذا الباحث –بعد تتبّعه الوافي لكثيرٍ من كتب البلاغة– بما لا يدعُ مجالاً للشك كيف ((أن البلاغة العربية وُظِّفَت بذكاء لخدمة معتقدات المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم من الفرق))(٧٤). وهو مايؤكد خطأ الرأي الذي يرى بأن لا أثر للمعتقد على التوجه البلاغي، حسبما أكّد ذاك الباحث، وحسبما ثبت لنا في هذا البحث من كون القول بالصرفة متأثّراً بفكر المعتزلة وعقائدهم.

– إذا كان القول بالصرفة قد شمل معظم أعلام المعتزلة، فإن الحال على النقيض تماماً بالنسبة للأشاعرة، ذلك أن مَنْ عَرَضنا لهم في هذا البحث قد رفضوا الصرفة رفضاً قاطعاً لا يقبل التأويل. وهذا يلفت إلى الأصول التي تستقى منها آراء كل فرقة. إذ يُلحَظ أن الأدلة التي يَرُدُّ بها الأشاعرة أمر الصرفة أدلة نقلية تركز في المقام الأول على القرآن الكريم، وتحاول أن تورد وجه التعارض بين القول بالصرفة ومفهوم آيات القرآن. وإذا

كان عبد القاهر قد استخدم شيئاً من المنهج العقلي في رفض الصرفة، فإن ذلك كان دعماً للأدلة النقلية التي أوردها. وهنا يلحظ مدى التباين بين المنهجين في التفكير، فالمعتزلة اتجهوا نحو تقرير المسألة من الوجهة العقلية البحتة. بخلاف الأشاعرة الذين اتبعوا المنهج العقلي المستند على النقل.

- أخذ القول بالصرفة بوصفه وجهاً من وجوه الإعجاز خطاً تصاعدياً، فقد كانت الفكرة سطحية ساذجة عند النظام، ثم ارتقت قليلاً عند الجاحظ الذي طورها وأضاف إليها، ثم هي عند الرماني تصير وجهاً من وجوه إعجاز القرآن. حتى يأتي الشريف المرتضى وابن سنان فيحدّدان بشكلٍ أدق الكيفية التي تحقّقت بها تلك الصرفة.

- يُلحظ أيضاً تطوّر الآراء التي جاءت للردّ على فكرة الصرفة وإنكارها، ذلك أن النقاش عند الخطابي يمر مروراً عابراً، فتأتي الإشارة إليها خفيفة. ويتطور الأمر عند الباقلاني الذي يولي المسألة عناية أكبر. ثم يأتي القاضي عبدالجبار ويناقش جميع صورها ويبطلها واحدة واحدة. وأخيراً يأتي شيخ البلاغيين عبد القاهر الذي يخصّها بحديث مطوّل في رسالة كاملة عن إعجاز القرآن لينقض فيها تلك الفكرة ويبين وجه فسادها وضلالها.

- القول بالصرفة كان اجتهاداً خاطئاً -ولاشك -عند جميع من قالوا بها، وقد قال بها بعضهم بدافعٍ اعتقادي -كما سبق-، في حين قال بها آخرون رغبة في إقفال باب اللجاجة والجدل والخصومة حول وجه إعجاز القرآن.

واستخدام الصرفة للردّ على المعاندين والجاحدين وإفحامهم أمرٌ معروف على ما يبدو، وقد قال به الإمام ابن كثيرٍ في تفسيره، حيث يقول: ((وقد قرّر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال: إن كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى

وهو المطلوب وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدراتهم على ذلك وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق)) (٧٥) . وبرغم عدم تأييدنا لرأي ابن كثير هذا، إلا أن كلامه يدلّ على أن بعض العلماء لا يرى بأساً من القول بها من باب المجادلة والمنافحة عن الحق، ولعلّ هذا هو سرّ اختيار هذا القول عند بعض العلماء الذين قالوا بذلك لإخراس أصوات الجاحدين المعاندين.

- برغم الأصداء التي أحدثها القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم، إلا أن طرح هذه القضية كان خيراً على البلاغة العربية، إذ دفع العلماء إلى البحث عن الوجه الحقيقي لإعجاز القرآن الكريم، فكان أن توصّلوا إلى أن القرآن معجز ببلاغته. وفي هذا يقول أحد الباحثين بأنه مهما ((يكن من بطلان القول بالصرفة، فقد أدّت إلى نشأة البحث حول الوجوه البديلة، فكان على العلماء أن يبحثوا عن الوجوه الأخرى التي يمكن أن تكون دليلاً على الإعجاز، فاتجه علماء الإسلام إلى البحث والتنقيب، فاهتدوا إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين المنزل من عند الله العزيز الحكيم قرآناً عربياً، فكان هذا الباطل سبباً في خيرٍ كثير، عاد على الدراسات القرآنية والدراسات البلاغية. وكما يقولون في الأمثال: "رُبّ ضارةٌ نافعة"، فقد تولّد عن هذا الباطل دفاعٌ حكيم، وُلِدَت منه علوم البلاغة العربية... وإن أكثر ما كتب الأوّلون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن ومحاولة لبيان إعجازه)) (٧٦) .

في الختام، أسأل الله تعالى أن يكون ما كتبته نافعاً مفيداً في إيضاح هذه القضية، قضية الصرفة، وأن أكون قد وُفّقت في عرض الموضوع عرضاً مناسباً. ولا أجد في الأخير إلا أن أسأله تعالى أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن يزيدنا علماً، إنه هو العليم الحكيم.

الهوامش والتعليقات

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مادة (ص ر ف) .

(٢) انظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص٢٢. (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د.محمد زغلول سلاّم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت)، والطراز للعلوي، مكتبة المعارف، الرياض، د، ت، ٣/ ٣٨٨ .

(٣) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني د.أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠هـ، ص٢٧.

(٤) السابق، ص ٢٧.

(٥) انظر: الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٠٥هـ ص ٣٥٨.

(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨، ص١٢١.

(٧) الرسالة الشافية، عبدالقاهر الجرجاني، ص٦١١. (صمن دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٠ هـ) .

(٨) الإعجاز البلاغي، د.محمد أبوموسى، ص ٣٥٨ (في الهامش).

(٩) السابق ص ٣٥٨ و ٣٥٩ (في الهامش).

(١٠) السابق، ص ٣٥٩.

(١١) الطراز، العلوي، ٣/ ٣٩٢.

(١٢) السابق، ٣/ ٣٩١.

(١٣) السابق، ٣/ ٣٩١.

(١٤) مقالات الإسلاميين، الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩هـ، ١/ ٢٧١.

(١٥) الملل والنحل، الشهرستاني، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ١/ ٧٢.

(١٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص١٤٤.

(١٧) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د. منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٣، ١٩٨٦م، ص ٥٤.

(١٨) السابق، ص ٥٥.

(١٩) الإعجاز البلاغي، د، أبو موسى، ص ٣٥٦

(٢٠) المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، أحمد أبو زيد، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٦، ط١، ص٢٦٦.

(٢١) الإعجاز البلاغي، محمد أبو موسى، ص٣٥٧.

(٢٢) رسائل الجاحظ، جمع وتحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ٣/ ٣٨٥.

(٢٣) السابق، ٣/ ١٤٨.

(٢٤) دلائل الإعجاز ص٢٥١ (وقد اقتبسه الإمام عبدالقاهر من كتاب حجج النبوة).

(٢٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى الرافعي، ص١٤٧.

(٢٦) الحيوان، الجاحظ، تحقيق :عبد السلام هارون، دار الكتاب، بيروت، ط٣، ١٣٨٨هـ ٤/ ٨٩.

(٢٧) الإعجاز البلاغي، د.أبو موسى، ص٣٦٣.

(٢٨) المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، أحمد أبو زيد، ص ٢٦٨.

(٢٩) انظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د. منير سلطان ص، ٦١، ٦٢.

(٣٠) النكت في إعجاز القرآن، الرمّاني، ص٧٥. (ضمن ثلاث رسائل).

(٣١) السابق، ص١١٠.

(٣٢) السابق، ص ١٠٩.

(٣٣) الملل والنحل، الشهرستاني، ١/ ٧٢.

(٣٤) سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ط٢، ص٤.

(٣٥) السابق، ص٩٢.

(٣٦) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبدالجبار، تحقيق : أمين الخولي، طبعة مصر، ١٣٨٠هـ، ١٦/ ٢١٧.

(٣٧) انظر: السابق، ١٦/ ٢١٧ وما بعدها.

(٣٨) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص ٢٣ (ضمن ثلاث رسائل).

(٣٩) السابق، ص ٢٣.

(٤٠) الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى، ص٣٦٦.

(٤١) السابق، ص٣٦٦.

(٤٢) إعجاز القرآن، الباقلاني، تقديم وشرح: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ، ص٥٥ .

(٤٣) السابق، ص٥٦.

(٤٤) السابق، ص٥٦.

(٤٥) السابق، ص٥٦ .

(٤٦) السابق، ص ٥٧.

(٤٧) السابق، ص ٥٧.

(٤٨) السابق، ص ٥٧.

(٤٩) تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبدالجبار، دار النهضة الحديثة، بيروت، د.ت، ص٢٣٣،٢٣٢.

(٥٠) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبدالجبار، ١٦/ ٣٢٢.

(٥١) السابق، ١٦/ ٣٢٥.

(٥٢) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د.منير سلطان، ص٩١.

(٥٣) الملل والنحل، الشهرستاني، ١/ ٧٢.

(٥٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبدالجبار، ١٦/ ٢١٩.

(٥٥) السابق، ١٦/ ٢١٩.

(٥٦) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، د.عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٧٨، ص ٤٨٤.

(٥٧) يقصد بالمفهومين: مفهوم الصرفة عند النظام، ومفهوم الصرفة عند الجاحظ.

(٥٨) المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، أحمد أبو زيد، ص ٢٦٩.

(٥٩) الرسالة الشافية، عبدالقاهر الجرجاني، ص ٦١٧.

(٦٠) السابق، ص٦١١.

(٦١) السابق، ص٦١٢.

(٦٢) السابق، ص٦١٤.

(٦٣) السابق، ص ٦١٥.

(٦٤) السابق، ص ٦١٩.

(٦٥) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٠ هـ، ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٦٦) الرسالة الشافية، عبدالقاهر الجرجاني، ص٦٢١،٦٢٢.

(٦٧) الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى، ص٣٦٧.

(٦٨) من مقدمة دلائل الإعجاز ص: ب.

(٦٩) انظر: شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، تحقيق : د. عبد الكريم عثمان، القاهرة، ط١، ١٩٦٥، ص١٣٢ .

(٧٠) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د. منير سلطان، ص٥٥ .

(٧١) أثر القرآن في النقد العربي، د.محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ص٧١ .

(٧٢) الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى، ص٣٦٨ .

(٧٣) انظر: المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، د.محمد بن علي الصامل، دار اشبيليا، الرياض، ١٤١٨هـ، ص ١٢٥ وما بعدها.

(٧٤) السابق، ص ١٦٢.

(٧٥) تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ، ١/ ٦٢.

(٧٦) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، د.أحمد جمال العمري، ص ٣٢.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأشعري، علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩هـ.
- الباقلاني، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تقديم وشرح: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ .
- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق :عبد السلام هارون، دار الكتاب، بيروت، ط٣، ١٣٨٨هـ.
- ـــــــــــ رسائل الجاحظ، جمع وتحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز تحقيق : محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٠ هـ .
- ـــــــــــ الرسالة الشافية (ضمن دلائل الإعجاز بتحقيق شاكر).
- الخطابي، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د.محمد زغلول سلاّم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت)
- الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٨هـ.

- الرماني، علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)
- أبو زيد، أحمد، المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن،، مكتبة المعارف، الرباط، ط١، ١٩٨٦.
- سلام، د.محمد زغلول، أثر القرآن في النقد العربي، دار المعارف، القاهرة.
- سلطان، د. منير، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٣، ١٩٨٦م .
- ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تحقيق: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٤هـ.
- الشهرستاني، الملل والنحل، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.
- الصامل، د.محمد بن علي، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، دار اشبيليا، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ
- القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت، د.ت.
- ـــــــــــ شرح الأصول الخمسة تحقيق : د. عبد الكريم عثمان، القاهرة، ط١، ١٩٦٥.
- ـــــــــــ المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق : أمين الخولي، طبعة مصر، ١٣٨٠ هـ.
- عبدالباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، استنانبول ١٩٨٢م.

- العلوي، ابن حمزة، الطراز ، مكتبة المعارف، الرياض، د، ت .
- العمري، د.أحمد جمال، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠هـ
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير ابن كثير دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.
- لاشين، د.عبدالفتاح، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٧٨.
- ابن منظور، عبد الله بن محمد، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت .
- أبو موسى، د. محمد، الإعجاز البلاغي، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٠٥هـ.